اللّغة العربية

أصف أريب البلخي☆

فضيلة العلم ودرجة العلماء

العِلم مصدر تدُلّ على الإدراك، وهو نقيضُ الجهل، والفلاسفة أطلَقوها على معرفة الشّيء على ما هو به، كما أطلقوها على حصول صورة الشّيء في العقل. وعلى كلّ هذا فإنّه بمعنى العام يشمل الفهم والمعرفة على أنّ بعض أهل العلم فرّقوا بين العلم والمعرفة: بأنّ العلم يُستعمل على حصول الصّورة عند العقل، والمعرفة تُطلق فيما يُتوصّل إليه بتفكّر وتدبّر. وليس مقصودُنا من هذا العُنوان هذا المعنى العام بل المراد هو بيان فضيلة العلم الشّرعي من القرآن والسّنة.

لا بُدّ أن نعلم أن العلم على أقسام، منها فرض عين لا يعذر أحد بجهله كالعلم بتوحيد الله وأوامره ونواهيه وحدوده، ومنها فرض كفاية كالعلوم الشّرعية من الفقه والتّفسير والعلوم الآليّة من البلاغة والأدب والنّحو والصّرف وما إلى ذلك.

العلم النّافع

إنّ الله جلّ وعلا قد ذكر العلم في مقام المدح تارة، كما قال:

١. ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزّمر: ٩].

☆ الأستَاذ بجَامِعَة لاهُور الإسْلَامِيَّة.

٢. وقال: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

٣. وقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

٤. وقرن شهادته بشهادة أهل العلم بقوله: ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّه لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

كما ذكر الله سبحانه وتعالى العلم تارة في مقام الذّم، ألا وهو العلم الّذي لا ينتفع به، فالعلم من حيث هو في نفسه نافع ولكن صاحبه ما انتفع به، كما قال تعالى:

١. ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥].

٢. وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلكِنَّه أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُه كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

٣. وقال: ﴿ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وبالتّفكير في هذه الآيات ندرك أنّ الله سبحانه قد ضرب أشدّ الأمثلة وأوقعها للعلماء الذّين لا ينتفعون بعلمهم. وقد قيل في الضابطة لمعرفة العلم النّافع: أنّ العلم النّافع هو ما كان يشتمل على معرفة الله وما يستحقّه من الأسماء والصّفات، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه والخوف منه والمحبّة معه والرّجاء عنه والتّوكل عليه والرضاء بقضائه والمعرفة بما يحبّه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظّاهرة والباطنة والأقوال الخفيّة والعلانيّة.

فضيلة العلم

قال ابن القيم رحمه الله: العلم هاد وهو تركة الأنبياء، وهو حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصّدور ولذّة الأرواح، وهو الحاكم المفرّق بين الشّك واليقين والغيّ والرّشاد والهدي والضّلال، به يُعرَف الله ويُعبد ويُوحّد ويُمجّد، وبه تُعرَف الشّرائع والأحكام ويتميّز الحلال، وبه تُعرَف رِضى الله، وهو إمام، والعمل مأموم، وهو قائدٌ والعمل تابعٌ، وهو الكاشف عن الشبهة، فالبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تُساوي درجة الصّيام والقيام، والحاجة إليه أعظم من الطّعام والشّراب. اهـ. بتصرّف[1].

وقد ذكر صاحب الموسوعة الخلقيّة ثلاثمائة وتسع وسبعين (٣٧٩) آيةً وخمس وستين (٦٥) حديثًا وإحدى وتسعين (٩١) أثرًا في فضيلة العلم مما يدلّ على اهتمام الإسلام وترغيبه إلى العلم النّافع[2].

ولو لم يكن في القرآن سوى آية واحدة لكفى، فكيف بك بمآتٍ من الآيات الّتي تدلّ على المطلوب، منها:

١. قوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

٢. أمر الله نبيّه ﷺ بقوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وقد عقد

١. مدارج السالكين ٣/ ٤٦٩.

٢. موسوعة الأخلاق، مادة علم: ٧/ ٢٩١.

الإمام البخاريّ رحمه الله: باب فضل العلم، وأورد تحته هاتين الآيتين.

٣. قال تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، فهو وصف الله جلّ وعَلا.

٤. العلم هو المنقبة الّتي باهى الله به لآدم عليه السّلام على الملائكة بقوله: ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هؤُلَآءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

٥. هو الدّرجة التي احتاج نبي الله موسى عليه السلام إلى عبد من عباد الله حينما سافر إليه كما قصّ الله سبحانه في كتابه.

٦. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزّمر: ٩].

٧. قال رَسُولُ الله ﷺ: « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » [صحيح البُخاري: ٧١].

٨. قال أبو ذرّ رضي الله عنه: (والّذي نَفسي بِيده! لو وَضعْتُم السَّيفَ عَلى قَفايَ ثمّ ظَنَنتُ أنّي مُنفِّذٌ كلمةً سمِعتُها مِن النبي ﷺ قبلَ أنْ تحتزّوا لأنفذتُها)[1].

هل العلم يستلزم كثرة العمل؟

بالرّجوع إلى القرآن والحديث والآثار وعلى أقوال العلماء ندرك أن فضيلة العلم الدّيني أمر ذاتيّ لا تعلّق له بكثرة صوم أو صلاة أو عمل خير أو قلّته، وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: (باب العلم

١. رجال حول الرّسول: ١/ ١٤.

قبل القول والعمل، يقول الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّه لَآ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمّد: ١٩] فبدأ بالعلم)، يعني الإمام البخاريّ بذلك أنّ الاستغفار من الأعمال، وهذا العمل أمره الله بعد حصول العلم مما يدلّ على فضيلة العلم ذاتيًا وإلا كيف يأمر الله به.

فمن هنا عرفنا مطلق فضيلة العلماء ـ الّذين يكتفون بالواجبات ويتجنّبون عن المحرمات ـ على العُبَّاد الزُّهّاد الجُهَلاء الّذين يَتعبون أنفسهم بكثرة القيام والصّيام ولا حظّ لهم من معرفة العلوم الدينيّة الشّرعية وتوعية الكتاب والسّنة، وهذا مصيبة فوق المصائب، وذلك لأنّ الرسول ﷺ لما قال لعليّ رضي الله عنه: « وَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَّكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » [صحيح البخاري: ٢٩٤٢]، والاهتداء لا يحصل إلا بالعلم، عرفنا أن أهميّة العلم ذاتي لا يتعلّق بكثرة الأعمال الظّاهرة أو الباطنة.

بعض الآثار الواردة في فضل العلم

١. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُه إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِه أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَه » [صحيح مسلم: ١٦٣١].

٢. عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعًا: « فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ » [رواه الحاكم وصحّحه ووافقه الذّهبي، أنظر المستدرك: ١/ ١٢٨، رقم: ٣١٤].

٣. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » [صحيح البخاري: ١٠٠].

٤. عن أبي الدّرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَه مَنْ فِي السَّمَاوَات وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » [صحيح جامع التّرمذي: ٢٦٨٢].

٥. عن عُثْمان رضي الله عنه عن النَبِيّ ﷺ: « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَه » [صحيح البخاري: ٥٠٢٧].

٦. عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: « سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » [صحيح سنن ابن ماجه: ٣١٠٠].

٧. عَن جَابِر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِيمَا تطلب فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ فِي اللِّسَانِ فَذَلِكَ حُجَّةُ اللهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ » [كتاب العلم لابن عبد البرّ: ١/ ١٩٠ وصحّحه، جامع الصّغير: ٧/ ٥٧ وحسّنه].

فمن جميع هذه الأحاديث يتّضح لنا أن العلم أفضل شيء في الحياة

على الإطلاق، ولا يُوازِيه شيء، وإليك بعض أقوال الصّحابة رضي الله عنهم في فضل العلم:

١. قال عمر رضي الله عنه: (تعلّموا العلم وعلّموها النّاس وتعلّموا السّكينة والوقار والتّواضع ولا تكونوا جبارة علماء)[١].

٢. قال علي رضي الله عنه: (العِلمُ خيرٌ مِن المالِ، العلمُ يَحرُسُكَ وأنتَ تَحرس المالَ)[٢].

٣. وقال أيضا: (العالم أفضل من الصّائم القائم المجاهد)[٣].

٤. وقال سلمان رضي الله عنه: (علم لا يقول به ككنز لا ينفق منه)[٤].

٥. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (كن عالماً أو متعلمًا ولا تعد عن ذلك)[٥].

٦. وقال أبو الدّرداء رضي الله عنه: (العالمُ والمتعلّمُ في الأجْرِ سواءٌ)[٦].

هذا وغيرها من آثار الصّحابة والتّابعين، والآيات الكريمة والأحاديث النّبوية كثير وكثير ممّا يدلّ على المقصود، فلنكتفِ في هذه العُجالة على ما تيسّر، فالعلماء قد كتبوا والباحثون قد ألّفُوا تأليفاتٍ مستقلّة ومقالات متنوّعةً في الموضوع ولكُلّ حَظّه ونصيبُه، والله من وراء القصد.

---

١. جامع بيان العلم وفضله: ١/ ١٣٥.
٢. إحياء علوم الدّين: ١/ ١٧.
٣. جامع بيان العلم وفضله: ١/ ١٢٣.
٤. العلم لزبير بن حرب: ص٨.
٥. العلم لأبي خيثمة: ص٦.
٦. أخلاق العلماء للآجري: ص٤٢.